

**وعي القيادة بأسس
الجغرافيا السياسية
في عملية توحيد المملكة
العربية السعودية**

إعداد الدارس
سالم عسكر اليامي

بحث مقدم كجزء من متطلبات الحصول
على درجة الدبلوم في الدراسات الدبلوماسية

المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	١٣
أولاً: الإطار النظري لتكوين الدولة في الجغرافيا السياسية	١٥
حشد القوة	١٨
المصلحة المشتركة	٢٠
تكوين الدولة	٢٢
ثانياً: المراحل التاريخية لتوحيد المملكة	٢٤
توحيد نجد	٢٥
توحيد الأحساء	٢٦
توحيد حائل	٢٧
توحيد الحجاز	٢٨
ثالثاً: التطبيق العملي لأسس الجغرافيا السياسية في توحيد المملكة	٣٠
أهمية التوقيت الزمني لمراحل التوحيد وارتباطه بالأحوال السياسية	٣١
أهمية الطبيعة الجغرافية والبشرية للمناطق الموحدة	٣٦
أثر الترتيب الزمني والجغرافي لمراحل التوحيد في إنشاء الدولة	٣٩
رابعاً: انعكاسات وعي القيادة بأسس الجغرافيا السياسية على كيان الدولة ...	٤٢
الانعكاسات الاجتماعية	٤٢
الانعكاسات الاقتصادية	٤٣
الانعكاسات الأمنية	٤٥
الخاتمة	٤٧
قائمة المراجع	٥٠

مقدمة

أعلنت المملكة العربية السعودية دولة موحدة في العام ١٩٣٢م وكان وراء ذلك العمل قيادة ممثلة في شخص الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود. وكل الرجال الذين كانوا عوناً له، في إنشاء هذه الدولة، التي قامت في شبه الجزيرة العربية. غير أن ذلك الكيان لم ينهض في يوم وليلة؛ بل بني على أسس عرفت للجميع منذ استعادة الرياض عام ١٩٠٢م والتي كانت النواة للدولة، ثم توالى عمليات التوحيد بثبات، وترقب، ونجاح. ومما يثير الدهشة أن عمليات التوحيد تلك كانت منسجمة مع أسس بناء الدولة، كما يوردها علم الجغرافيا السياسية. وجاء السؤال هل كان ذلك الانسجام نتاجاً لوعي معرفي (استراتيجي) في ذهن القيادة؟ أم هو وعي عملي (تطبيقي) طبقته القيادة بما أوتيت من مقومات شخصية وقيادية.

إن كل ما يحاول بيانه هذا البحث هو التطابق بين النموذجين المعرفي النظري، الجوانب التطبيقية التي أيد كل منهما الآخر في إنشاء الدولة. وتعود أهمية دراسة خطوات التوحيد التي كانت محطات أفضت كل منها إلى الأخرى، إلى أن اختيار وتطبيق كل مرحلة كان مؤشراً ينبئ عن وعي بأسس الجغرافيا السياسية في مجال تكوين الدولة. مما ينفي عن الكيان صفة التمدد العشوائي؛ والذي غالباً ما يفضي إلى تناقضات تعمل لاحقاً على تآكل نسيج الدولة من الداخل، على عكس ما هو عليه الحال بالنسبة للمملكة العربية السعودية حيث كان التثام أطرافها مرحلياً، طبيعياً، وحتمياً.

حظيت عملية توحيد المملكة العربية السعودية بالعديد من الدراسات والبحوث التي تناولت هذه العملية من جوانب مختلفة، كانت في مجملها تاريخاً لعملية التوحيد ومراحلها، أو إبراز جوانب من شخصية القيادة، ودورها البارز في ذلك

الحدث، أو وصفاً لمواقف وأحداث وخطب تمت أثناء تلك العملية، وهذه الدراسة تصف عملية التوحيد من منظور تطابق تلك العملية (إنشاء الكيان) في مراحلها المختلفة مع أسس بناء الدولة في علم الجغرافيا السياسية، وتحليل كل مرحلة من هذه الزاوية.

ونعتقد أن اللجوء إلى منهج واحد من مناهج البحث المعروفة في مجال الدراسات الاجتماعية لا يمكن أن يوضح الفكرة الأساسية لهذا العمل، وأن استخدام المناهج: التاريخي، والوصفي، والمورفولوجي، والتحليلي، بنسب متفاوتة يمكن أن يحقق الوصول إلى الهدف المبتغى من الدراسة.

فاستخدام المنهج التاريخي سيمكن من العودة إلى مراحل التوحيد وعرضها، وبالتالي وصف نقاط كل مرحلة ثم تحليل تلك المراحل من حيث المكونات، والتطابق مع أسس بناء الدولة في علم الجغرافيا السياسية. والمنهج المورفولوجي يمكن من معرفة ارتباطات الدولة المكانية ومكوناتها الذاتية، ثم تحليل عوامل تكوين الدولة في تفاعلاتها الرأسية والأفقية.

ونرى تقسيم هذه الدراسة على النحو التالي:

أولاً: الاطار النظري لتكوين الدولة في الجغرافيا السياسية

ثانياً: المراحل التاريخية لعملية توحيد المملكة

ثالثاً: التطبيق العملي لأسس الجغرافيا السياسية في عملية توحيد المملكة

رابعاً: انعكاسات الوعي بأسس الجغرافيا السياسية على كيان الدولة

ثم الخاتمة وقائمة المراجع.

أولاً : الإطار النظري لتكوين الدولة في الجغرافيا السياسية

الجغرافيا السياسية أحد فروع الجغرافيا البشرية، وظهرت كعلم مستقل ذي منهج محدد ومنظم في «أواخر القرن التاسع عشر فقط»^(١). ويعد النمط السياسي العالمي - أي توزيع الأقاليم السياسية على سطح الأرض - المكون الأساسي لمجال الجغرافيا السياسية، والأقليم السياسي هو ذلك الجزء من سطح الأرض الذي يتميز بشكل، أو بأشكال محددة من الظواهر السياسية. وعليه فإنه يمكن النظر للجغرافيا السياسية على أنها «دراسة الأقاليم السياسية كظواهرات من سطح الأرض»^(٢). وغالباً ما يحدث خلط بين مفهومي (الجغرافيا السياسية) و(الجيوبوليتيكا) على الرغم من أن الجيوبوليتيكا هدفها الأول هو دراسة الأوضاع العامة للكتل القارية ومنحها أهميتها السياسية بالنسبة لموضوع مهم هو «السيادة العالمية»^(٣). وعليه فإنه يمكن التقرير أن الجيوبوليتيكا «علم سياسي أساساً يستمد جذوره من الجغرافيا وحقائقها»^(٤).

وقبل التعرف على ماهية الجغرافيا السياسية، يجدر بنا معرفة الفروق الجوهرية بين الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيكا، والتي يمكن إجمالها في النقاط التالية^(٥).

(١) فتحي محمد أبو عيانة، دراسات في الجغرافيا السياسية (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٣)، ص ٣٣.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٣.

(٣) محمد رياض، الأصول العامة في الجغرافية والجيوبوليتيكا (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٤)، ص ١١١.

(٤) نفس المصدر، ص ١١.

(٥) نفس المصدر، ص ١١١ - ١١٢.

(١) الجيوبولتيكا ترسم خطة لما يجب أن تكون عليه الدولة، بينما تدرس الجغرافيا السياسية كيان الدولة الجغرافية.

(٢) تضع الجيوبولتيكا تصوراً لحالة الدولة في المستقبل، بينما تقنع الجغرافيا السياسية برسم صورة الماضي، والحاضر.

(٣) الجيوبولتيكا تتسم بالتطور والحركة، بينما تميل الجغرافيا السياسية إلى الثبات.

(٤) تحاول الجيوبولتيكا أن تجعل الجغرافيا وحقائقها في خدمة الدولة، بينما الجغرافيا السياسية ليست سوى صورة للدولة.

وقد حدد الكثيرون من كتاب الجغرافيا السياسية معنى الجغرافيا السياسية ومن هؤلاء (هوتلسي) الذي ذكر أن «الوحدة السياسية هي نواة الجغرافيا السياسية وأن القيمة السياسية لأية دولة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالظروف المناخية للمناطق التي تشغلها الدولة وبأشكال سطح الأرض وبالموارد الطبيعية في تلك المناطق»^(١).

وتجمع التعريفات المتعددة للجغرافيا السياسية على أن التمييز بين الظواهر السياسية المختلفة من مكان إلى آخر هو «روح الجغرافيا السياسية»^(٢).

ولقد تعرض الفكر الجيوبولتيكي بدوره إلى مراحل تمدد الدول أفقياً وزمنياً ومتطلبات تلك المراحل عبر فكرة (المجال الحيوي) ومن الذين تعرضوا لهذا الموضوع العالم الألماني فردريك راتزل، في مقالة عن قوانين النمو للدولة عام ١٨٩٦ م حوت النقاط التالية^(٣):

(١) أن الدولة مثل الكائن الحي الذي يولد، وينمو، ويكبر، وأن رقعة الأرض التي تحتلها الدولة لا تنمو إلا بنمو الثقافة، والحضارة، والتقدم.

(١) محمد متولي، محمود أبو العلا، الجغرافيا السياسية (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٧)، ص ١٠.

(٢) نفس المصدر، ص ١٠.

(٣) حسين حمزة بندقجي، الدولة دراسة تحليلية في مبادئ الجغرافيا السياسية (جدة: ح.ح. بندقجي، ١٩٨١)، ص ٢٨-٢٩.

- (٢) كلما انتشر سكان الدولة المتقدمة ثقافياً، كلما حملوا معهم ثقافتهم، وبهذا فإن الأراضي التي ينزلون بها خارج حدودهم هي التي تزيد مساحة دولتهم.
- (٣) أن نمو السكان يجب أن يتم قبل نمو الدولة؛ لأن السكان هم الذين يحتلون الأراضي التي سوف تتوسع فيها الدولة.
- (٤) أن عملية النمو والتوسع يجب أن تتم ببطء؛ بأن يضاف إلى جسم الدولة أجزاء صغيرة من الأراضي بحيث يمكن استيعابها، وحتى تتفاعل الأرض ومن عليها، ليبدأ التوسع في ضم قطعة أخرى صغيرة.
- (٥) أن الحدود السياسية هي الإطار المغلف للدولة، وإن حدود الدولة تبين مدى اتساع الدولة وما وصلت إليه من نمو.
- (٦) ينبغي أن تهتم الدولة عند نموها بنوعية الأراضي التي تضمها، فلا تضم سوى الأراضي ذات القيمة الاقتصادية، كأن تكون سهولاً خصبة أو أنهاراً يستفاد منها، أو مناطق ساحلية تطل على بحار دولية نشطة، أو أن تكون الأراضي غنية بالثروات المعدنية.
- وبما أن الدولة هي محور عمل الجغرافيا السياسية، فإن الدول والامبراطوريات لا تخلق فجأة، وإنما تولد في مكان ما (بيئة جغرافية معينة) ثم تنمو ببطء، إلى أن تأخذ الصورة النهائية لمساحتها (الشكل) وحجمها، وذلك من خلال ما توفر لها عبر مراحل نموها من قوى اقتصادية، وبشرية، ونفوذ سياسي.
- وفي النقاط التالية سنتعرض لمفاهيم أساسية يجب توافرها للانطلاق إلى تكوين الدولة.

- حشد القوة :-

ضمن حركة القيادات التاريخية، والسياسية، التي أعطتها التاريخ صفة النماذج المؤسسة للدول والامبراطوريات، سعت تلك القيادات وبشكل دائم للبحث عن مصادر القوة التي تمهد لها الطريق لإقامة كيان سياسي، على رقعة جغرافية معينة. وكان الانطلاق الواعي لتلك القيادات هو ذلك الذي ينطلق من فهم الظروف المحيطة على مستوى الطبيعة الجغرافية التي يتم التحرك من خلالها، وأيضاً فهم الواقع الثقافي وأنماط العلاقات الاجتماعية السائدة، والقوة التي نبحث عنها هي تلك الرموز التي تتعدد في أشكالها، وتتظافر كقوى تراكمية تساهم في خلق الفعل التاريخي. ولعل فهم طبيعة جغرافية صحراوية صرفة والتحرك من خلالها يحتم على القيادة فهم رموز القوة في هذه البيئة، فعلى مستوى القوى البشرية فإنها تعد أعقد وأصعب أنواع القوة التي يتوجب على القيادة كسبها إلى صفها في عملية البناء، لضرورة البدء بالتعامل مع هذه القوى من منطلق تغيير الأنماط المتحكمة، والسائدة، ومن ثم حشد القوة البشرية وتجميعها، ومن أولى العقبات التي تواجه القيادة في هذه المرحلة، أن هذه القوى المستهدفة منقسمة إلى أنماط ثقافية، وقيمية، واقتصادية، وذلك بفعل العوامل الجغرافية البحثية.

وعندما تسيطر المناخات الصحراوية في رقعة جغرافية معينة، نجد أن القوى البشرية منقسمة بفعل المكون الجغرافي إلى (البدو)، وهي الفئة التي استمرت في حالة البداوة والترحال، والفئة الأخرى وهي (الحضر) وهي الفئة التي استقرت في (مراكز حضرية) في نطاقات محدودة كالواحات والقرى الزراعية^(١). وفي ظل هذه الانقسامات فإن حياة القبيلة بكل رموزها هي السائدة، وهنا «فان الولاء

(١) تركي الحمد، دراسات ايدولوجية في الحالة العربية (بيروت: دار الطليعة، ١٩٩٢) ص ١٣٣.

يكون موجهاً نحو الوحدة الاجتماعية، والاقتصادية الرئيسة، ألا وهي القبيلة»^(١).

من خلال فهم هذه الانقسامات، فإن القيادة مدعوة للاستفادة من هذه العناصر البشرية، وذلك لأهميتها، فبدون العنصر البشري لن تستطيع الدولة أن تعلن عن نفسها من رقعة الانطلاقة، إلى آفاق أرحب، وأوسع. فالعنصر البشري هو الرجال، والسلاح، وهو حائط الصد الأول لإخضاع الآخرين، أو قتل أطماعهم في تهديد مسيرة الدولة وانطلاقتها. فكان على القيادة في هذه المرحلة اتخاذ كل الوسائل التي تمكنها من تدوير كل الاختلافات بين الفئتين على مستوى الاختلافات في الانتماء القبلي، وتضارب المصلحة، والتمايز الحاد في نمط الحياة، واكتساب الرزق.

وعلى مستوى القوة الاقتصادية، فإن أحد أهم مصادر القوة التي يتوجب على القيادة توفيرها للانطلاقة، هي القوة الاقتصادية، وذلك لانعكاسها الخطير على مصدر القوة الأولى.

ففي مثل المناخات الصحراوية وضمن التقسيم السابق إلى حضر وبدو، فإن الدراسات تؤكد أن السلوك العدواني، أو المتسم بالعنف في العلاقة بين الطرفين مرده البحث عن هذه القوة، «فالعوز الاقتصادي لدى أبناء البادية (البدو) الذي يشكل أساس أعمالهم العنيفة يقوم هو نفسه على أساس جغرافي، هو قسوة الطبيعة في المناطق الصحراوية»^(٢).

فكان لزاماً على القيادة ضمن هذه الشروط المناخية توفير هذا العامل (القوة الاقتصادية) وذلك بالبحث عن نقاط تجمع أو تمركز، بعد ضمان العنصر البشري، وتهذيب سلوكه العدواني بتوفير المورد الاقتصادي في مركز الانطلاقة (النواة)، والذي يجب أن يكون

(١) نفس المصدر، ص ١٣٤.

(٢) نفس المصدر، ص ١٣٦.

مصدراً اقتصادياً جيداً، كأن يكون موقعاً ملائماً للإنتاج الزراعي، وتتوفر فيه المياه، بالإضافة إلى العوامل الأمنية الضرورية لاستقرار وتركيبة عوامل القوة. وفي مرحلة متقدمة يجب توافر الظروف الاستراتيجية، المهيئة للانطلاق، من خلال استغلال هذه القوى لعوامل الانطلاق. إلا أن المعضلة تنشأ من جديد عند البحث عن هذه المصادر خارج حدود النواة، وذلك يتطلب وفقاً معيناً من الوعي والحسابات الخاصة بكيفية التحرك، وزمنه، وذلك لأن «من مظاهر النواة أنها غالباً ما تتحول من اقتصاد يعتمد إلى حد كبير على الاكتفاء الذاتي، إلى نوع آخر من التخصص الإقليمي في إنتاج السلع... وبما أن المنطقة (النواة) لا تحقق رغباته (القيادة) فإنه يتطلع إلى الأقاليم المجاورة لاستغلالها»^(١).

وهكذا تصبح عملية حشد القوة الاقتصادية هاجساً، ملازماً، للقيادة، منذ الانطلاقة، أو الشروع في تأسيس النواة، مروراً بمرحلة الانطلاق، والبحث عن مصادر القوة البشرية، والاقتصادية، بمختلف صورها، حتى اكتمال شكل الدولة النهائي. كل ذلك يمكن للقيادة تحقيقه من خلال متغيرات عدة لعل أهمها، معطيات جغرافية معينة، وأنماط ثقافية وقيمية، وولائية، وتوحيد مصلحة الأطراف لحل هذه التناقضات.

- المصلحة المشتركة :

كانت الاشكالية المطروحة أمام القيادة في نهاية النقطة السابقة هي صعوبة المواءمة بين تناقضات أطراف التكوين البشري الذي تعمل به، ومن خلاله، عبر حشدها للقوة البشرية والاقتصادية. وتمتد هذه النقطة لتوفر للقيادة في ظل هذه المعضلة الناشئة أصلاً من الظرف الجغرافي، الحل المتمثل في توحيد المصلحة، أو

(١) حسين حمزة بندقي، مصدر سبق ذكره، ص ١٠-١١.

التقريب بين المصالح المتضاربة للأطراف.
فأول المعضلات هي تعدد الكيانات المتمثلة في وحدة القبيلة. «والقبيلة ككيان اجتماعي سياسي نقيض لقيام دولة مركزية»^(١).

وتأتي المصالح المختلفة للأطراف باختلاف انتماءاتهم القبلية، وظروف معيشتهم التي حددتها الجغرافيا. وغزو بعضهم البعض، وغزو القبائل لتجارة الحضر الذين يمارسون التجارة في المراكز الحضرية، والزراعية في القرى والواحات، بالإضافة إلى بعض الأنشطة الحرفية البسيطة والضرورية لحياة مثل حياة هذه المجتمعات. ومجمل هذه التناقضات تشير إلى أن الحضر يسعون إلى السلام والنظام، لاتفاق ذلك السعي مع نمط النشاط الاقتصادي الذي يمارسونه، بعكس البدو الذين يقوم نشاطهم الاقتصادي على الترحال، طلباً للمراعي الجيدة. ولكونهم تحت رحمة الطبيعة كانت عملية الاكتفاء بنشاط اقتصادي واحد، أمراً غير وارد، لذلك «برز العنف بين قبائل البادية وبين الحضر كنوع من النشاط الاقتصادي البديل بخاصة في الظروف الطبيعية الصعبة»^(٢). لعل المكونات الشخصية للقيادة لديها القدرة على تقريب المصالح، وعدم تضاربها بين هذه الفئات. وعنصر تقريب المصالح، أو جعل مصالح هذه القوى المحشودة لبناء وخلق الدولة مصلحة واحدة مشتركة، أسلم الطرق وإن لم يكن أسهلها.

وانطلاقاً من نقطة البداية (النواة) والخطوات الأولى لتكوين الدولة، فإن اقناع هذه القوى بمزايا المصير المشترك في ظل ظروف كيانية جديدة (الدولة) وموارد اقتصادية متجددة، عبر إعطاء أبعاد مكانية جديدة للدولة، وتحطيم البنى الكيانية الضعيفة السابقة، أو تقليل الولاءات لها بما لا يؤثر على قيام الدولة المركزية، تصبح أفضل الوسائل. وعندها تصبح المصلحة في الأمن على الأرض والنفس مكفولة

(١) تركي الحمد، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٧.

(٢) نفس المصدر، ص ١٣٥.

للجميع، ويصبح الولاء لكيان واحد، وتكون العوائد المتحققة من بروز الكيان حائلاً دون شبح العلاقات القائمة على العنف والغزو وعدم الاستقرار. مما يعضد دور القيادة في تعزيز مفاهيم مثل الوحدة، والمساواة، خاصة عندما يتوفر للقيادة القدرة على بلورة كل ذلك في ايدولوجية جديدة، تكون مقنعة للجميع، وغير متعارضة مع مرجعياتهم الفكرية، والعقائدية. وهنا يكون دور القيادة تحديداً «تعبئة (هذه الجماعات) من جديد عن طريق اعطائهم ايدولوجية جديدة، ونظماً مختلفاً للقيم»^(١).

- تكوين الدولة :

نجاح القيادة في تحقيق عملية حشد القوى البشرية والاقتصادية في مرحلة الانطلاقة الأولى، ثم الاستزاده من هذه العناصر مع مراحل تقدم بناء الدولة، وزيادة مقدراتها، تعد المنطلق الأول لتكوين الدولة.

أما عملية الاستمرار في بناء الدولة فيعززها وجود العنصر الثاني (المصلحة المشتركة) وتتصاعد عملية بناء الدولة وقوتها كلما شعرت الأطراف (كل الأطراف) بالقيادة، والقوة البشرية المؤثرة بأمر القيادة، بأن مصلحة الجميع في سلة واحدة. ولعل من أبرز العوامل التي تؤكد المصلحة المشتركة، ويؤهلها لأن تكون إحدى قوى الدفع لبناء الدولة أن يكون الهدف من وراء بناء الدولة وقيامها هدفاً سامياً، يمثل بعداً ايدولوجياً في العقل الجمعي للقيادة وعناصر قوتها، كأن يكون ذلك حمل رسالة سماوية، أو الدفاع عن حقوق منطلقة من تشريع إلهي، ونشرها كمحور ينطلق منه العمل السياسي.

وتصبح عملية حشد القوة، وتوفير المصلحة المشتركة، وتحقيقها، ووضوحها، الدافع الأساسي للعمل على بناء الدولة وتحقيق مكاسب أرضية جديدة، وتعزيز

(١) نفس المصدر، ص ١٤٣.

درجة الكفاءة السياسية التي تمارسها القيادة.

ومع استمرار عملية البناء، وزيادة حجم وشكل الدولة، تصبح القيادة مطالبة بتوفير المزيد من القوى وحشدها. وتبدو العملية هنا عملية مترابطة بين هذه العناصر بصورة طردية، فتحقق المزيد من القوة للدولة، ووجود مصلحة مشتركة واضحة يجب الدفاع عنها، وبقناعة، يعني دائماً المزيد من القوة المعنوية التي تدفع القيادة للفعل السياسي المؤثر، ومن ثم المزيد من النمو والتطور في اتجاه بناء الدولة بقطاعاتها وكياناتها المختلفة.

ولئن كانت عناصر حشد القوة، والمصلحة المشتركة تعد وليدة الأفكار التي تسيطر على القيادات (الرموز) المؤسسة للدول، والكيانات السياسية، فإنها أفكار لها حقها بمكونات شخصية القيادة دائماً، وذلك لأن هذه الأفكار، وبسعي القيادات لتحقيقها على أرض الواقع، تكون هي المنطلقات الحقيقية لتكوين الدولة.

فعنصر حشد القوة البشرية، والاقتصادية، يحققه ركنان أساسيان من أركان الدولة، هما ركن الشعب، والأرض. وبوجود القيادة يتحقق ركن الحكومة التي تدير وتنظم شؤون هذه الجماعات البشرية على الرقعة الجغرافية. وبوجود عنصر المصلحة المشتركة، التي تعني رضا المحكومين (الشعب) بالحاكم، يتحقق ركن السيادة للقيادة في ممارستها إدارة أمور الشعب في الأرض. وعودة إلى تعريف الدولة، نجد أن الجغرافيا السياسية تعرفها بأنها، «رقعة من الأرض، موجودة، ومنظمة سياسياً، ومسكونة من قبل سكان أصليين، لها حكومة وطنية ذات سيادة»^(١).

ونخلص من ذلك إلى أن القيادة إذا ما تمكنت من تحقيق عناصر حشد القوة، والمصلحة المشتركة، تحقق كمحصلة لذلك قيام الدولة (الكيان)، بعناصرها المعروفة في علم الجغرافيا السياسية.

(١) حسين حمزة بندقجي، مصدر سبق ذكره، ص ٨.

ثانياً : المراحل التاريخية لتوحيد المملكة

قبل الولوج إلى وصف عمليات التوحيد، يجدر بنا التعريف بشخصية القيادة التي كانت وراء هذه العمليات، برؤيتها، وحنكتها، وصفاتها الشخصية والقيادية. ولد عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل فيصل في الرياض، في ذي الحجة ١٢٨٨٠ م. ودرس في صغره القرآن الكريم، وعلوم الفقه، والتوحيد. وتدرّب في مستقبل حياته على فنون الفروسية، والرماية، والضرب بالسيف. «ونشأ نشأة قاسية كان لها أكبر الأثر في تغلبه على الصعاب في حياته»^(١).

وعلى أثر محنة انهيار الدولة السعودية الثانية، شارك عبدالعزيز والده التنقل من الرياض إلى مضارب آل مرة في الربع الخالي بالقرب من الأحساء، ثم انتقل مع والده إلى قطر، فالبحرين، وأخيراً الكويت «حيث بقي فيها مع أفراد عائلته زهاء عقد من الزمن»^(٢).

وقد استفاد عبدالعزيز من صحبته الطويلة لو والده، وملازمته الدائمة له، خصوصاً عندما استقروا في الكويت، حيث تفتحت قريحته السياسية، ووجد التطبيقات العملية للصراع السياسي يدور أمام عينيه، إذ أن «الكويت كانت في ذلك الوقت ميداناً للصراع السياسي الدولي، بين الانجليز، والألمان، والروس، والعثمانيين. فروسيا تسعى جاهدة للوصول إلى مياه الخليج العربي، وألمانيا تحاول بالاتفاق مع العثمانيين مد سيطرتها على البلاد العربية، وذلك عن طريق إنشاء خط حديدي، يصل من برلين إلى بغداد، ثم الانتهاء به في الكويت. بينما يعمل الانجليز لتمكين سلطانهم في إمارات الخليج العربي، بمعارضة مد الخط الحديدي إلى

(١) مديحة أحمد درويش، تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الأول من القرن العشرين (جدة: دار الشروق، ١٩٨٣)، نقلاً عن: صلاح الدين المختار: تاريخ المملكة العربية السعودية ج ٢، ص ١٤.

(٢) نفس المصدر، ص ٧٩.

الكويت»^(١).

واستقام عود عبدالعزيز، ونمت مداركه، وتفتح ذهنه، وبلغ سن الشباب، وكان هدفه الأول، أن يعود إلى الرياض، لا للعيش فيها كما يعيش في الكويت بل لكي «يجدد ملك أجداده وآبائه ويحيي مفاخرهم»^(٢).

وتحقق لعبدالعزیز ما كان يهدف إليه، وعاد للرياض منصوراً، وانطلق بعدها يوحد شتات هذه الأرض.

توحيد نجد:

كان حلم عبدالعزيز استعادة الرياض، وتحقيق ذلك الحلم بعزم عبدالعزيز القوي في ١٥ يناير ١٩٠٢م^(٣)، ونودي بعبدالعزیز أميراً على نجد. كل ذلك بعد قصة استعادة لا تخلو من المخاطر، فعبدالعزیز سبق أن حاول استعادة الرياض قبل هذا التاريخ، ولكن لم يكتب له التوفيق، إلا أن اصراره كان أكبر من عدم نجاح المحاولة التي سعى إلى تكرارها، وكان النجاح حليفه. لقد خرج عبدالعزيز مع مجموعة من رجاله، بعتاد لا يتجاوز بعض الإبل، وبعض البنادق، وساروا عبر الصحراء من الكويت إلى قرب الرياض التي وضع عبدالعزيز خطة لاستعادتها بناءً على مقوماته المتواضعة، من الرجال، والسلاح. وكانت الساعات الحرجة هي لحظة تنفيذ الخطة، بقيادة عبدالعزيز، وحفنة من رجاله، حين استطاع استعادة الرياض، والقضاء على نفوذ ابن رشيد في شخص عامله على الرياض عجلان^(٤).

(١) نفس المصدر، ص ٧٩.

(٢) أمين سعيد، تاريخ الدولة السعودية، الجزء الأول، ص ١٠.

(٣) عبدالعزيز الرفاعي، سيد أحمد يونس، بناء المملكة العربية السعودية في التاريخ الحديث والمعاصر (القاهرة: المكتبة العالمية، ١٩٧٨)، ص ١٧.

(٤) محمد المانع، توحيد المملكة العربية السعودية. (باللغة الانجليزية) ترجمة عبدالله الصالح العثيمين (١٩٨٢) ص ٤٤.

وكانت استعادة الرياض «الدعامة الأولى للدولة السعودية الحديثة والمعاصرة»^(١) حيث انطلقت عمليات التوحيد في مختلف الجهات، معلنة عن بناء الدولة. وكان من المنطقي أن تكون انطلاقة عبدالعزيز إلى المناطق المحيطة بالرياض، وذلك لأن هذه المناطق هي الامتداد الطبيعي، والعمق الجغرافي الأولي لنواة الدولة (الرياض)، ولا اعتبار أن الحشد البشري فيها (أهالي نجد) هم المناصرون التقليديون لأسرة آل سعود.

ولعدم رضى ابن رشيد عن ما حدث في الرياض، فقد عزم على استعادة الرياض، ولكن عبدالعزيز قرر أن يكون المهاجم. وبعد عدة معارك، وفي أماكن متفرقة، كان آخرها عنيزة، التي هزمت فيها قوات ابن رشيد، دخل عبدالعزيز عنيزة في أبريل ١٩٠٦م. فدانت له القصيم، وقبل ذلك، الحوطة، والخرج والأفلاج والحريق، ووادي الدواسر، أي «نجد الوسطى»^(٢). انظر شكل رقم (١).

توحيد الأحساء :

كان الجزء الشرقي (الأحساء) تحت الحكم العثماني، وللظروف السياسية المحيطة بالدولة العثمانية، وحروبها خارج المنطقة العربية التي أضعفتها، فلم يكن في هذا الاقليم سوى حامية تركية. إضافة إلى أن هذا الاقليم كان يعني الكثير من النواحي الاستراتيجية، والاقتصادية، لعبدالعزیز، فكان هو المحطة المقبلة في عملية بناء الدولة ونموها من منطقة النواة (الرياض) والدائرة الأولى المحيطة بها. فهذا الإقليم هو الجسر الأول للدولة على العالم الخارجي، وهو المنفذ لها من عزلتها داخل صحراء الجزيرة العربية، هذا على المستوى الاستراتيجي، وعلى المستوى الاقتصادي فالأحساء اقليم زراعي ذو أرض خصبة، صالحة للإنتاج الغذائي، والإنتاج الزراعي، ومياهه حلوة وفيرة.

(١) عبدالعزيز الرفاعي، سيد أحمد يونس، مصدر سبق ذكره، ص ١٧.

(٢) أمين سعيد، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧.

وفي ١٢ نيسان ١٩١٣م كان عبدالعزيز على رأس ٦٠٠ من خيرة فرسانه، ودخلوا عاصمة الإقليم (الهفوف) وتغلبوا على الحامية التركية داخل أسوار المدينة وأعلن الحكم فيها لعبدالعزیز، وفي نفس الوقت استولى على القطيف، وأجلى الجالية التركية منها^(١). (انظر شكل رقم ١).

توحيد حائل:

كان نشوب الحرب العالمية الأولى الخلفية لتفكير عبدالعزيز، ومن ثم اقدامه على ضم المنطقة الشمالية، وكان اللقاء الأول بقوات آل رشيد في معركة جراب ١٩١٥م. التي لم تظهر أي تفوق للخصمين، بعد ذلك تم توقيع معاهدة دارين ١٩١٥م والتي اعترفت فيها بريطانيا «بملكية الأمير السعودي على نجد، والأحساء، والقطيف وجبيل وملحقاتها، والموانئ التابعة لها على ساحل الخليج وأنها مستقلة»^(٢). شعر عبدالعزيز بالأمان، وأعطاه ذلك دفعة لوضع نهاية للصراع مع خصمه ابن رشيد، فكانت معركة يعثب بين الطرفين، والتي انتصر فيها عبدالعزيز رغم أنها لم تكن حاسمة. ونتيجة لعوامل أخرى كانت في مجملها في مصلحة عبدالعزيز، وزادت من قوته، وتصميمه بالتوجه إلى حائل لقتال ابن رشيد. وبعد عدة معارك متفرقة حاصرت القوات السعودية حائل حصاراً شديداً، وسقطت أخيراً في يد عبدالعزيز في نوفمبر ١٩٢١م. (انظر الشكل رقم ١). وعادت الوحدة إلى نجد مرة أخرى تحت حكم آل سعود، وانتهت سيطرة آل رشيد وضم سلطان نجد اقليماً زراعياً كبيراً، وسيطر على طريق الحج الذي يربط إيران والعراق بالحجاز، ومكنه ذلك من الاستيلاء على مقاطعتي الجوف، ووادي السرحان عام ١٩٢٢م، وضمهما إلى نجد^(٣). (انظر الشكل رقم ١).

(١) نفس المصدر، ص ٥٦.

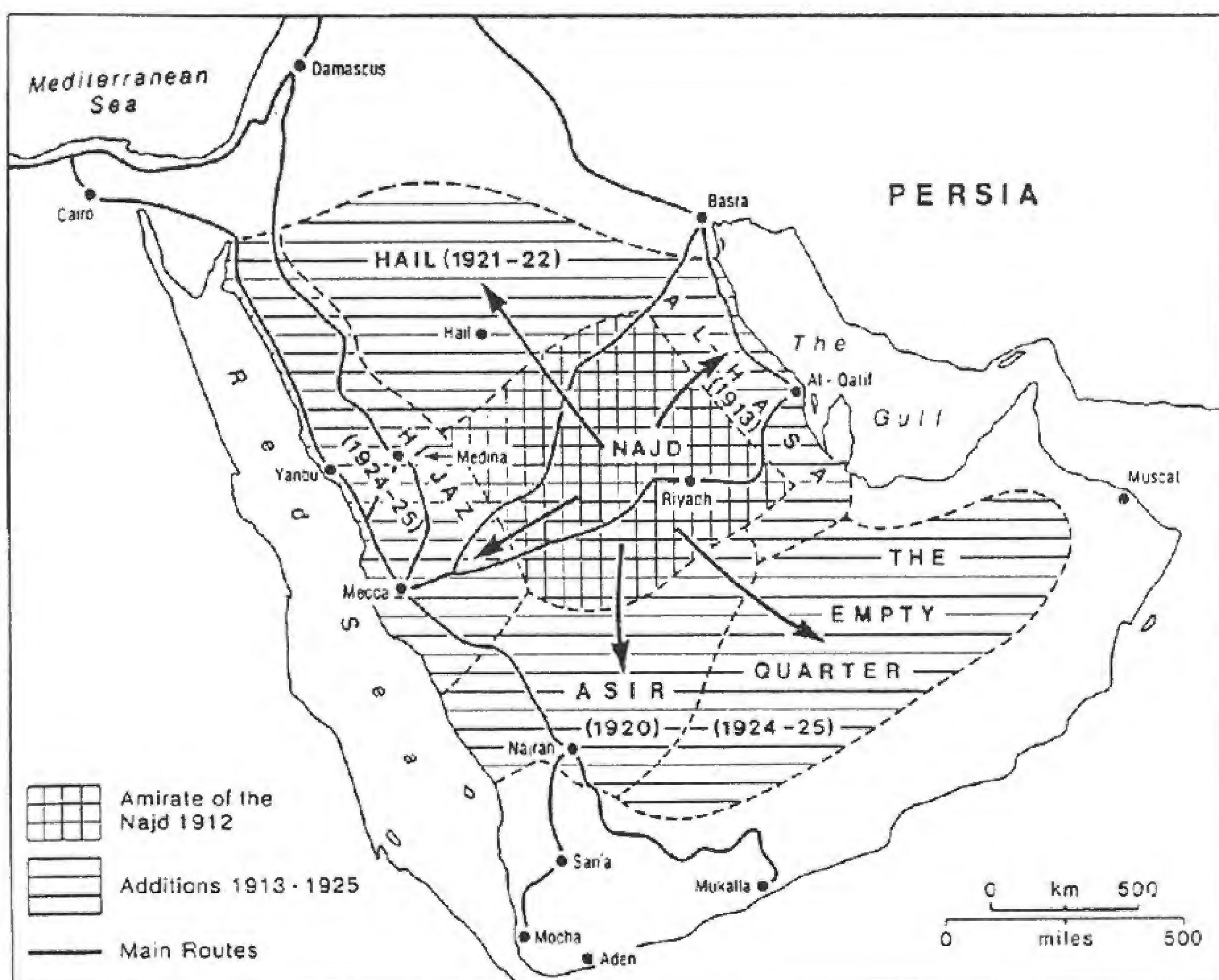
(٢) عبدالعزيز الرفاعي، سيد أحمد يونس، مصدر سبق ذكره، ص ٥٢.

(٣) نفس المصدر، ص ٦٠.

توحيد الحجاز :

كان الأشراف أصحاب السيطرة في الحجاز، واحتفظ لهم السعوديون بذاكرة سيئة منذ زمن بعيد في علاقات الطرفين، ومنذ بروز قوة عبدالعزيز كواقع على أرض الجزيرة العربية، والخلافات بين الطرفين في تصاعد مستمر. وبعد المكاسب الأرضية لعبدالعزیز، منذ استعادت الرياض، ثم تحركاته (توسع الدولة) الأفقية في المناطق الشرقية، والشمالية، وتخلصه من عوائق كان يمكن أن تكون حجر عثرة في طريقه لضم أجزاء الفضاء الغربي، كان أهمها، تقلص عدد المناوئين له، وأمن جانب القوى المسيطرة في المناطق المجاورة لنفوذه، ونجاحه في حشد قوة بشرية سخرت لأعمال القتال وتوسيع رقعة الدولة (قيام تنظيم الأخوان ١٩١٣م)^(١). كانت المحطة التالية في برنامج عبدالعزیز لتثبيت الحكم وتوسيعه هي إقليم الحجاز وكان اللقاء الأول بين قوات عبدالعزیز والأشراف في عام ١٩١٩م، حيث نجح السعوديون في الاستيلاء على تربه، التي مكنت القوات السعودية في وقت لاحق من الاستيلاء على الطائف عام ١٩٢٤م. وفي نفس العام ونتيجة لانسحاب الأشراف من مكة إلى جدة، بعد خسائرهم في اللقاءات العسكرية، تمكن السعوديون من دخول مكة المكرمة «بدون قتال»^(٢) واستمر تقدم القوات السعودية إلى جدة، حيث حوصرت هي والمدينة المنورة، التي دخلها السعوديون في العام ١٩٢٥م. وبعد المدينة عجز الأشراف عن الصمود في جدة المحاصرة، وفضلوا الخروج منها ليدخلها السعوديون في نفس العام. (انظر الشكل رقم ١).

(١) تنظيم تعود أصوله إلى الدعوة الإصلاحية التطهيرية التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب في القرن الثامن عشر. وشجع الملك عبدالعزيز أعضائها على الاستقرار في (هجر)، والعمل بالزراعة بدلاً من حياة التنقل والترحال، واستفاد منها في تحقيق وحدة الدولة وأمنها.
(انظر) محمد المانع، توحيد المملكة العربية السعودية، ص ١٠٩ - ١٩٤.
(٢) مديحة درويش، مصدر سبق ذكره، ص ١١٢.



شكل رقم (١)
خريطة مراحل توحيد المملكة

المصدر:

Blake, G, 1985 "The Middle East and North Africa: a study in political Geography"

ثالثاً: التطبيق العملي لأسس الجغرافيا السياسية في توحيد المملكة

المغفور له الملك عبدالعزيز رحمه الله من أبرز القيادات التاريخية التي استطاعت تغيير وقائع، وحقائق كثيرة، بفضل ما تميزت به شخصيته القيادية من الصفات الخلاقة، التي ليس تعدادها مكان هذا البحث، لأسباب عدة، أهمها، أن أعمال هذا الرجل وإنجازاته تكفي عن أي وصف، أو اسهاب. فهي خير الشواهد له، إذ يكفي أنه استطاع استيعاب المتغيرات المحيطة به والاستفادة منها لتحقيق مفهوم وواقع الدولة.

والوعي كأحد الصفات التي ميزت القيادات التاريخية، والمؤسسين في حياة الأمم والشعوب، له صوره وأشكاله المختلفة، فقد يتمثل في القدرة العالية لفهم الظروف السياسية المحيطة، وكيفية التعامل الإيجابي معها، أو القدرة على استشراف المستقبل، والبدء بوضع اللبنة القوية (الأسس) التي يستند إليها البنيان، الذي كان في يوم ما ملكاً خالصاً لذهنية القيادة وحدها، وقد يكون بصورته الشاملة، والتي تتجلى في السلوك، والتصرف، والإنجاز، ليكون ثمرة تفي الكثيرون وتسد حاجاتهم، مع أن الذي حفر الأرض بأظافره، وغرس هذه البذور، رجل واحد (القائد) وعاونوه المخلصون ممن حافظوا على تربة البذور، وعاونوه في سقيها، وحمايتها، حتى كبرت، وأعطت ثمارها للأجيال.

وانطلاقاً من التجريد فيما سبق، عن الخطوات التي أعتمدتها الجغرافيا السياسية، لتكوين الدولة، نأتي للتطبيق الجزئي لهذه الأسس في تجربة الملك عبدالعزيز، وذلك من خلال المراحل التي اختيرت كنماذج للتوحيد، أو صور منه لبيان التطبيق في النقاط التالية .

أهمية التوقيت الزمني لمراحل التوحيد وارتباطه بالأحوال السياسية :

لم تظهر الدولة السعودية الحديثة إلى حيز الوجود فجأة، وبدون مقدمات، بل كانت مثلاً تطبيقياً لنشوء الدول من منطقة أولى (النواة)، والتي كانت الرياض، ثم انطلقت في النمو الأرضي، والنفوذ السياسي، حتى بلغت الصورة التي يعرفها العالم اليوم.

وقد كان توقيت القيادة الزمني لمراحل توحيد أجزاء المملكة على النحو التالي:

نجد:

اكتسب حكم آل رشيد درجة عالية من الكراهية، والعداء، لكونه كان قائماً على الطغيان، والقسوة، وفرض الضرائب التي أرهقت كاهل السكان، مما جعل حنق الناس، وسخطهم في تصاعد مستمر، منذ العام ١٨٩٠ م. حين استولى محمد بن رشيد على الرياض. وغادرها عبد الرحمن بن فيصل آل سعود، آخر حكام الدولة السعودية الثانية، باحثاً عن «ملاذ يأوي إليه من طغيان ابن الرشيد»^(١). وقد صدقت فراسة عبدالعزيز، واختياره لهذا التوقيت المناسب، في أنه وجد الكثير من الأنصار قبل وصوله إلى الرياض حيث «انضم إليه عشرون رجلاً من أتباعه المخلصين في نجد، ومن الحانقين على ابن الرشيد»^(٢). وبعد دخول عبدالعزيز الرياض استقبل بترحاب من سكان الرياض. «فناصروه ثم ساعدوه في تحصين المدينة، وتمكين نفوذه فيها»^(٣).

(١) عبدالعزيز الرفاعي، سيد أحمد يونس، مصدر سبق ذكره، ص ٧.

(٢) نفس المصدر، ص ١٦.

(٣) نفس المصدر، ص ١٧.

كان سكان نجد والقصيم مناهضين لآل رشيد لما عرفوا عنهم من قسوة، وتسلب، خلق كراهية، ورفضاً، لدى أهالي نجد بشكل عام. فالأفلاج، والخرج، والحوطة، والحريق، كانت مقاطعات «تناهض حكم آل رشيد، وتعمل باستمرار للخلاص منهم»^(١).

وفي بدايات النزاع مع آل رشيد حول القصيم، وفي إحدى محاولات الكروا الفر من عبدالعزيز، واستيلاء ابن رشيد عليها، وسيطرته التامة على حداثها، وإقامة حكماً قاسياً فيها. عبر سكان القصيم عن رغبتهم في رفض حكم آل رشيد، وارسلوا وفداً لعبدالعزيز، يناشده باسمهم العودة لتحرير القصيم. منذ المحاولة الأولى لعبدالعزيز في استعادة الرياض ١٩٠٠م، وما صاحبها من ترحيب بعودته أثار آل رشيد ضد أهالي نجد عموماً، والقصيم خصوصاً، فاضرموا النيران في القرى، والواحات، وشُنق في بريدة مائة وثمانون من شيوخها، وفرضت على السكان جزية كبيرة.

الأحساء:

وصل أعضاء حزب الاتحاد والترقي إلى السلطة في تركيا عام ١٩٠٨م، وخلعوا السلطان عبدالحميد الثاني عام ١٩٠٩م. واستمروا في السيطرة على البلاد العربية، وعززوا حاميتهم في الأحساء. وفي العام ١٩١٣م، بدأ العثمانيون «يواجهون صعوبات في البلقان، وقد اضطروا إلى انقاص حامياتهم في أطراف الدولة الأخرى، حتى قدرت في الأحساء بنحو أربعمئة جندي فقط»^(٢).

وزاد من ضعف الدولة العثمانية، واهتزاز مركزها في المنطقة، المنافسة البريطانية لنفوذ العثمانيين التقليدي في المنطقة. حتى أن الدولة العثمانية لم تحاول استعادة الأحساء من عبدالعزيز، لأنها رأت «أن تجريد حملة

(١) نفس المصدر، ص ١٨.

(٢) نفس المصدر، ص ٤١.

كبيرة لاستعادة هذا الأقليم مرة أخرى، يكلفها الكثير من النفقات في الوقت الذي كانت تعاني الأزمات الاقتصادية»^(١).

ومع التسليم بالواقع الجديد في الأحساء، حاول العثمانيون الوصول إلى تفاهم مع عبدالعزيز، يقطع الطريق على الإنجليز في كسب عبدالعزيز في صفهم. ولكن العثمانيين كانوا في مرحلة تخطيط في علاقاتهم مع عبدالعزيز، والشريف حسين، وابن رشيد، ودعموا الآخرين ضده، مما أوصد الباب أمام أي تفاهم معهم. وذلك عزز الاختيار المناسب لضم هذا الجزء، وأكد الأمر الواقع بأن الأحساء أصبحت ضمن دولة عبدالعزيز.

حائل:

حاول عبدالعزيز استثمار معاهدة دارين ١٩١٥ م مع الإنجليز، في خلق مناخ مناسب لتصفية خصومه التقليديين آل رشيد، الذين كانوا في وضع ضعف عكسته الأوضاع الدولية حينها، تمثل في اندحار مركز العثمانيين في المنطقة حيث خسروا في الحرب العالمية الأولى، الأمر الذي كان يعني حليفهم في المنطقة ابن رشيد. وأصبحت قوة آل رشيد محل تساؤل، لتخلي الدولة العثمانية عنهم، وعن امدادهم بالمال، والسلاح. وحق بهم ضعف داخلي تمثل في مقتل زعيمهم ابن متعب، فبعد مقتل ابن متعب عام ١٩٢٠ م، توزعوا شيعاً، وأحزاباً، وتفشت بينهم الخصومة والبغضاء. وكثرت الاغتيالات بينهم، لذلك كانت حكوماتهم تتغير، وتتبدل في فترات قصيرة جداً^(٢).

وأدرك عبدالعزيز أن الحكم في جبل شمر أصبح غير مستقر، للعوامل السابقة ولأن بريطانيا رفضت الوقوف إلى جانبهم وذلك لتمسك بريطانيا بسياسة «عدم

(١) نفس المصدر، ص ٤٤.

(٢) نفس المصدر، ص ٥٥.

التدخل في المنازعات المحلية بين أمراء الجزيرة العربية»^(١) وهذه السياسة اتبعتها بريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى.

وأمن عبدالعزيز جانب الأشراف في مساعدة آل رشيد بعدم قدرة الحسين بن علي في الحجاز، وابنه، الملك فيصل بن الحسين، ملك العراق، على تقديم العون لهم، لأن «الحسين، وابنه، كان كل منهما مشغولاً بمشاكلة»^(٢).

فاستثمر عبدالعزيز كل هذه الظروف، ووقت لدخول المدينة التي استسلمت له بعد الحصار هي وحاكمها محمد بن طلال الرشيد.

الحجاز:

تمثلت الأوضاع الدولية في مطلع القرن العشرين في صراع بين القوى الدولية المؤثرة في منطقة الجزيرة العربية، والمناطق المحيطة بها، القوة البريطانية التي رأت في «الشريف حسين بالحجاز خير منقذ لمخططاتها، أثناء الحرب العالمية الأولى»^(٣). وفي إطار علاقات هذه القوة بالزعامات المحلية، عقدت مع الملك عبدالعزيز معاهدة العقير ١٩١٥ م. واعترفت باستقلال المناطق التابعة له على ألا يتعرض لحلفائها، وألا ينضم إلى الدولة العثمانية.

ومنذ تولى الشريف حسين منصب الشرافة في مكة وهو تابع للنفوذ العثماني إلا أن تغير علاقاته مع الانجليز جعلته يعلن الثورة على الأتراك في ١٩١٦ م. على أمل بعود انجليزية بأن يكون «دولة عربية مستقلة يكون هو ملكاً عليها، وتكوين خلافة عربية تحت زعامته»^(٤). ونتيجة لاعلان الشريف حسين نفسه ملكاً على العرب، رأت بريطانيا لتلافي المشاكل في الجزيرة، ولضمان دعم

(١) نفس المصدر، ص ٥٨.

(٢) نفس المصدر، ص ٥٨.

(٣) مديحة درويش، مصدر سبق ذكره، ص ٨٩.

(٤) نفس المصدر، ص ٩٠.

الحسين لثورتهم ضد الأتراك، الاعتراف به ملكاً على الحجاز فقط. عام ١٩١٧ م. «وابتداءً من هذا التاريخ، أصبح الشريف حسين عبئاً على بريطانيا، بسبب تنديده بها لعدم وفائها له بوعودها»^(١).

ومرت العلاقة بين الملك عبدالعزيز والأشراف بمراحل صدام، كانوا هم المعتدين، وحاولت بريطانيا أن تقف إلى جانب الأشراف، إلا أن ذلك الدعم لم يستمر طويلاً «إذ أن تطورات الأحداث السياسية وتخلي بريطانيا عن بعض الوعود، أوجد نوعاً من سوء التفاهم بينما زاده اصرار الحسين على تنفيذ تلك الوعود، مما أشعر بريطانيا بالضجر من كثرة مطالب الهاشميين، فبدأت في إهمال الحسين، وعدم تأييدها له»^(٢).

أدرك الملك عبدالعزيز طبيعة العلاقة السيئة بين الأشراف والانجليز، فكان ذلك الوقت المناسب لضم هذا الجزء، وعزز مناسبة التوقيت، أن الحشد البشري (المعسكر) المتمثل في قوة الأخوان كان شواقاً لزيارة الأماكن المقدسة التي حرم منها لسنوات، وكان شوقهم أشد لرؤية مبادئ الدعوة السلفية تنتشر في أقدس الأماكن الإسلامية، فكانوا أول الملبين لنداء عبدالعزيز بالتوجه إلى الحجاز، للقضاء على الأشراف «منتهازاً تخلي الانجليز عن تأييدهم التقليدي للحسين»^(٣).

(١) نفس المصدر، ص ٩٤.

(٢) نفس المصدر، ص ١٠٥.

(٣) نفس المصدر، ص ١٠٥.

أهمية الطبيعة الجغرافية والبشرية للمناطق الموحدة :

اختارت الدراسة مناطق محددة لتطبيق الأبعاد الجغرافية عليها، أثناء عملية توحيدها، وذلك تسهيلاً لتوضيح أبعاد الجغرافية السياسية التي روعيت في ضم هذه المناطق، مع غيرها لتكوين الدولة، كانعكاس للوعي التطبيقي، العملي، الذي انتهجته القيادة. وفيما يلي بيان طبيعة كل منطقة جغرافياً وبشرياً.

نجد :

هذه المنطقة عبارة عن هضبة «تتدرج من الغرب إلى الشرق، حيث يبلغ ارتفاعها في أجزائها الغربية حوالي ٣٥٠٠ قدم فوق سطح البحر»^(١). وهذه المنطقة «ولا سيما القصيم من أخصب مناطق السعودية، وأوفرها من حيث المياه الجوفية»^(٢). لذا تعد هذه المنطقة من مناطق التركز السكاني، وقد قدر عدد السكان في إقليم نجد عام ١٩١١ م. «بمليون نسمة»^(٣).

وينقسم السكان في هذه المنطقة إلى الجماعات المستقرة، التي تعتمد في حياتها على الزراعة في الواحات، والقرى، المنتشرة وسط بحور الرمال. وإلى البدو الرحل، وهم أقل استقراراً، ويعتمدون في نشاطهم الاقتصادي على تربية المواشي، ورعيها.

(١) حسين حمزة بندقجي، جغرافية المملكة العربية السعودية (جدة: ح.ح. بندقجي، ١٩٨١)، ص ٨٤.

(٢) محمد أحمد الروثي، سكان المملكة العربية السعودية (ط ٢، الرياض: دار اللواء ١٩٧٩)، ص ٥٠.

(٣) نفس المصدر، ص ٣٣.

الأحساء :

يمكن النظر إلى هذه المنطقة على أنها رقعة سهلية، يحيطها البحر من الشرق (الخليجي)، والصحراء من الغرب (الدهناء). وهي عبارة عن مراكز حضرية، ومنطقة تركيز سكاني، منذ القدم. وذلك لملائمة الظروف الطبيعية التي جذبت السكان للحياة فيها. واشتهرت بوفرة المياه الجوفية، وغزارتها، وكثرة المحاصيل الزراعية. وخاصة النخيل، الذي ينمو في الأحساء، والقطيف بكثافة. وقد قدر سكان هذه المنطقة في العام ١٩١١ م. «بمليون نسمة»^(١).

وانعكست الطبيعة الجغرافية على الطبيعة البشرية في هذا الإقليم، إذ تكيف نشاط السكان مع الظروف البيئية المحيطة. فامتنعوا الزراعة، والحرف اليدوية البسيطة، وبالنسبة لفئة أقل هم البدو، فإن الترحال شأنهم على امتداد صحراء الجزيرة العربية. وإن استقر قطاع كبير منهم منذ قيام الدولة السعودية الحديثة.

حائل :

الظروف الطبيعية للمنطقة الشمالية قاسية. فمعظم هذه المنطقة مغطى بمساحات النفوذ الكبرى الرملية، وتتركز الحياة واعتمادها على الواحات الرعوية، وشبه الزراعية. ويمكن القول إجمالاً أن هذه المنطقة منبسطة تقريباً، وخالية من التضاريس الصعبة، إلا في ماندر. (انظر الشكل رقم ٢). وقامت حياة السكان هنا على الرعي، كنشاط أساسي لمعظم السكان، ذوي الجذور البدوية. الذين يجوبون هذه المساحات الشاسعة من الصحاري، بحثاً عن الكلاً والماء. والتركز السكاني في هذه المنطقة قليل نسبياً، لطبيعتها الصعبة، وبالتالي فإن الكثافة السكانية منخفضة.

(١) نفس المصدر، ص ٣٣.

الحجاز :

تزخر المنطقة الغربية بالتنوع في طبيعتها الجغرافية. حيث توجد بها السهول الساحلية، والمرتفعات الجبلية العالية، والمرتفعات المتوسطة (الحرات). ولعل الموقع الذي أتاح لهذه المنطقة الإطلال على البحر الأحمر مكنها من الاتصال بالعالم الخارجي، ووجود الأماكن المقدسة زاد من درجة ذلك الاتصال. ويمكن وصف السكان في هذه المنطقة بأنهم مستقرون، يمارسون الصيد في السواحل، والزراعة في المرتفعات، إضافة إلى التجارة التي عرفت بها المنطقة كنشاط لأبنائها منذ أقدم العصور. كل ذلك جعل من هذه المنطقة منطقة جذب، وتركز سكاني. وقد قدر عدد سكان الحجاز عام ١٩١١م «بمليون نسمة»^(١).

(١) نفس المصدر، ص ٣٣.

أثر الترتيب الزمني والجغرافي لمراحل التوحيد في انشاء الدولة :

منذ انطلاقة عملية توحيد المملكة بدءاً من الرياض، كانت عمليات التوحيد محطات متتابعة، أفضت كل منها إلى الأخرى. فنجد أن الملك عبدالعزيز ابتدأ من الرياض، متدرجاً من الهضبة النجدية، التي يغلب عليها الارتفاع من الغرب متحدراً إلى الشرق، وكأنه يقرأ طبيعة الأرض الجغرافية، ويسير مع الانحدار الطبيعي للبيئة والتركيب الجغرافية، واختار البدء بالأماكن الأكثر سهولة من حيث مظهرها الطبيعي، ومكونها البشري، وفوائدها الاستراتيجية، والأمنية.

واستمرت عمليات التوحيد بعيدة عن العشوائية، فكأن الملك عبدالعزيز كان يحيك سجادة، ويحكم بعمله ذاك أجزاءها إلى بعضها، بقوة، ومتانة، فكانت كل مرحلة تمثيلاً صادقاً للالتحام الطبيعي للمرحلة التي تليها، دلّ على ذلك، قوة البناء والتماسك، الذي لم يجد إليه التآكل، أو الانفصال، طريقاً منذ توحيدها.

ولعل أبرز نتائج تلك العمليات، الشكل النهائي للدولة (المملكة العربية السعودية)، والذي أخذ شكلاً سداسياً، مندمجاً، متماسكاً أجزاءه، بحيث «لا توجد بداخله نتوءات داخل دول أخرى، أو أية جيوب لدول مجاورة»^(١).

ولقد انعكس الشكل على وضع المملكة، بتماسكه بأن أعطى قوة لها، وسهل عملية الدفاع عنها والمحافظة على وحدتها واستقلالها.

كما سهل «مد شبكات النقل»^(٢). بين أجزائها المختلفة، ويسر ذلك كله سهولة الاتصال بين العاصمة وبقية أجزاء الدولة، مما ساعد على حفظ الأمن، وسرعة الدفاع عن جميع الأطراف المتباعدة.

(١) حسين حمزة بندقجي، مصدر سابق، ص ٣٨.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٨.

وهذا يعد مهماً لقوة الدولة لأن «تماسك الدولة يعتبر من أهم مقومات وحدتها، والسيطرة على أراضيها»^(١).

وانطلاقاً من التوقيت الزمني لمراحل التوحيد، وطبيعة المناطق الموحدة، بشرياً، وجغرافياً، وأثر ذلك على قوة الكيان يمكن الخلوصل إلى النقاط التالية:-

(١) إن الترتيب الزمني لعمليات التوحيد كان محسوباً من قبل القيادة، بناءً على قدرته لقراءة الواقع السياسي، وموازن القوة، والضعف في كل منطقة.

(٢) كانت عملية الترتيب الزمني بين مراحل التوحيد خاضعة لمنظور أن هذه العمليات يجب أن تتم بالبطء المناسب، الذي يفي باستيعاب الأراضي الجديدة، ولتتم عملية التفاعل البشري والجغرافي، وتُهضم المنطقة الموحدة، لتكون على درجة عالية من التجانس. تسمح بأن تكون الأرضية الصلبة لانطلاقة جديدة ضمن عملية التوحيد.

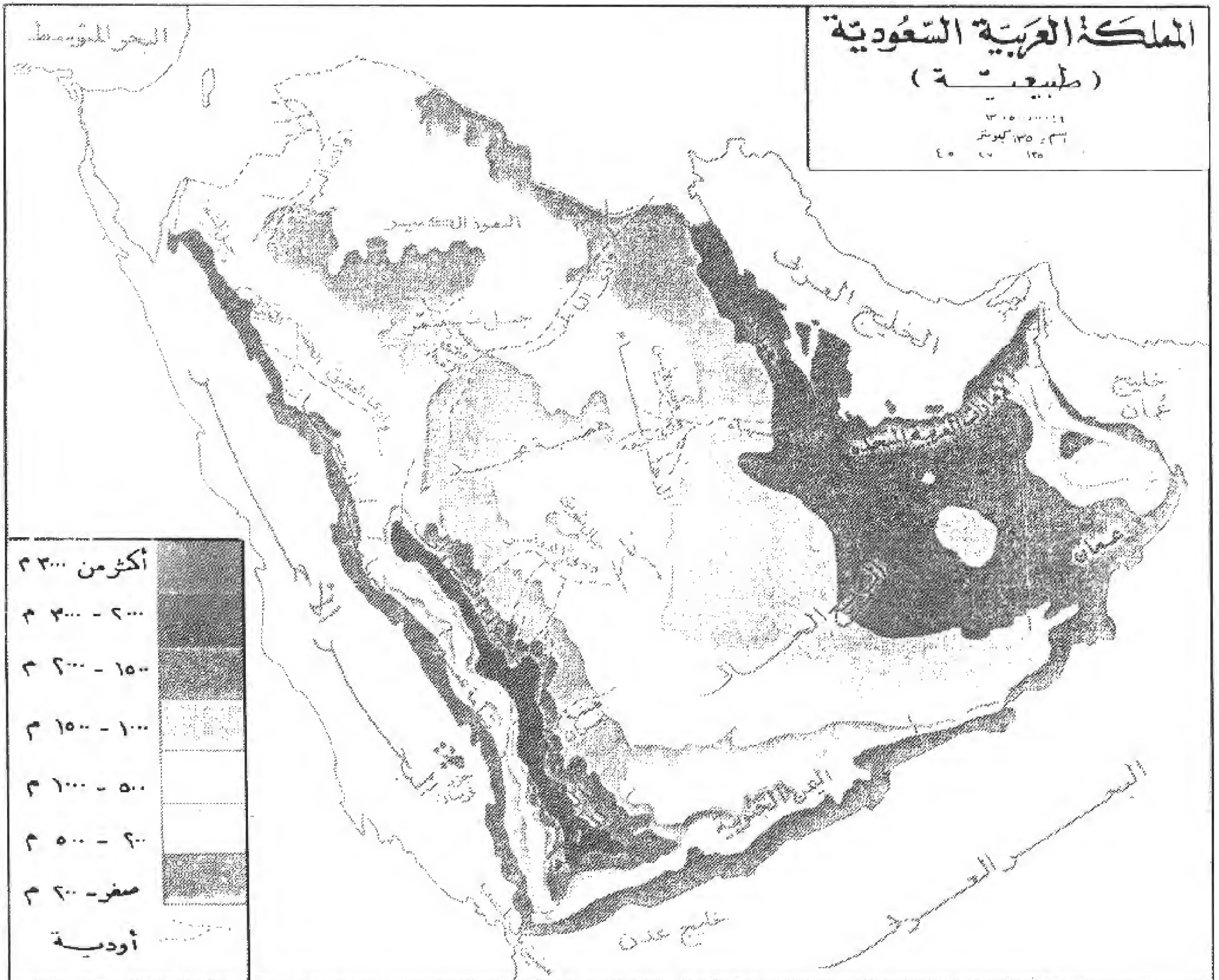
(٣) كان هناك اهتمام من القيادة بنوعية الأراضي التي سعت إلى ضمها مكونة لحممة الدولة، حيث شملت أراضي ذات قيمة اقتصادية واعدة، (القصيم، الأحساء، الحجاز). ومناطق ساحلية تطل على بحار، تسهل الاتصال بالعالم الخارجي، وتكسر من العزلة المفروضة على الدولة داخل صحراء الجزيرة العربية. (الأحساء - الحجاز).

كما سعت القيادة إلى ضم أماكن ذات ثقل روحي وديني (الأماكن المقدسة) مكة المكرمة، والمدينة المنورة، الأمر الذي أعطى للدولة أهمية ووزن عالمي، وإسلامي كبير.

(٤) كان لنمو الدولة منطلقاً ثقافياً روحياً، تمثل في اهتمام القيادة بنشر دعوة التوحيد، كأهم الأهداف لقيام الدولة، وهو الأمر الذي أوجد دافعاً سامياً لنمو الدولة، وتوسعها، وبالتالي نشر الدعوة، واستقرارها.

(١) نفس المصدر، ص ٣٨.

(٥) كانت حدود السعودية الحديثة بصورتها النهائية المؤشر الفعلي لما وصلت إليه الدولة من غنى بالثروات، والموارد، والقوة السياسية المؤثرة.



شکل رقم (۲)

خريطة طبيعية للمملكة

المصدر: دولت أحمد صادق، أطلس العالم الإسلامي. (جدة: دار البيان العربي ١٩٨٣).

رابعاً: انعكاسات وعي القيادة بأسس الجغرافيا السياسية على كيان الدولة

يقول المنطق: إن البدايات، تدل على النهايات. وكانت بداية هذا الكيان «المملكة العربية السعودية» قائمة على عزم قيادته التاريخية، التي حققت بوعي فطري صاف، إنجازاً تمثل في تكوين، وبناء الدولة بطريقة متسقة مع الرؤية السليمة لما تقرره الجغرافيا السياسية في قيام الكيانات والدول. وكان لهذا العزم والإنجاز انعكاسات على قوة الدولة، في مجالات مختلفة. وهنا نبين انعكاسات ذلك الوعي، الفطري، العملي، على النواحي الاجتماعية، والاقتصادية، والأمنية.

الانعكاسات الاجتماعية:

في المراحل الأولى من قيام الدولة السعودية المعاصرة، كان أكثر من نصف السكان من البدو، الذين يتوزعون بإبلهم، وماشيتهم، في أرجاء الصحراء، حول الآبار، وفي الأودية، والواحات، وعلى أطراف المناطق الزراعية، والمراكز الحضرية. وبناءً على الوضع القبلي للإنسان البدوي، فإن وضعه هذا مناف لقيام الدولة المركزية، المستقرة، الموحدة. والبدو من سكان الصحراء في مجموعهم قوى متصارعة، ومورد انتاجي معطل.

وادركت القيادة ضرورة تغيير ذلك النمط الحياتي، بترويض الظروف الطبيعية، لتبديل شروط الحياة فيها، ونقل ساكنيها من وضع إلى آخر. ونظراً للمساحة الشاسعة للمملكة العربية السعودية، وللطبيعة المنبسطة تقريباً لأراضيها، والخالية في معظمها من العوائق الطبيعية، فقد عملت القيادة على التركيز على درجة الاتصال بين الجماعات السكانية. بعد أن نفذت عملية ضخمة، لتوطين هذه

الجماعات، وحثها على الاستقرار، وغيرت من نمط الحياة المعتمد على الرعي إلى الزراعة.

وسعت الدولة منذ الأيام الأولى لقيامها إلى الاعتماد على شبكات الاتصال، والمواصلات، الأمر الذي يعزز من «التكامل بين السكان، وشعورهم بالانتماء»^(١) مما خلق بين السكان، وعلى مستوى المجتمع، أولى عمليات الانصهار، وذلك لكون سبل المواصلات والاتصالات، بين أقاليم الدولة، إضافة إلى فوائدها الاستراتيجية، والاقتصادية، تعتبر أدوات انصهار اجتماعي، ووسائل لنقل «الأفكار»^(٢).

ولعل في شكل الدولة المندمج، وخلو المملكة من التباينات الأثنية، ووجود وحدة المعتقد، ما عزز من درجة الانصهار، والتماسك الاجتماعي، لدى الإنسان السعودي.

وتعالت درجة الانصهار الاجتماعي، عبر نشر التعليم، والمساهمة في الوظائف العامة، وتعزيز قيم الولاء للدولة.

وكان للموقع المتوسط للعاصمة الرياض، وسهولة الاتصال بين أطراف الدولة، والعاصمة المركزية، وتوفر وسائل المواصلات، دوراً كبيراً في تعزيز البنية الاجتماعية.

الانعكاسات الاقتصادية :

من البديهي القول أن «المساحة الكبيرة هي من سمات الدولة القوية»^(٣).

(١) محمد رياض، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٦.

(٢) حسين حمزة بندقجي، جغرافية المملكة العربية السعودية، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥٥.

(٣) محمد عبدالمجيد عامر، دراسات في الجغرافيا السياسية والدولة «الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، د. ت»، ص ١٦١.

وفي التجربة السعودية، ووعي قيادتها بأسس الجغرافيا السياسية، كان أحد آثار ذلك الوعي، الصورة النهائية التي استقر عليها حجم الدولة. حيث تحظى المملكة بمساحة شاسعة، «المسافة بين أقصى نقطة في الشمال، والتي تقع على جبل عنازة، على حدود المملكة العربية السعودية مع الأردن. ومن أقصى نقطة في الجنوب، شمال ظفار، تقدر بحوالي ٢٥٠٠ كيلو متر. أما أقصى عرض للمملكة فيقع جنوب المملكة، بين عمان والبحر الأحمر، لمسافة تقدر بحوالي ١٧٠٠ كيلو متر. ثم يأخذ العرض في الضيق، كلما اتجهنا شمالاً، حيث يصل بين الوجه والدمام حوالي ١٣٥٠ كيلو متراً. ويقل في الشمال ما بين خليج العقبة، ورأس مشعاب، بأن يصل إلى حوالي ١٣٠٠ كيلو متر»^(١).

«والمساحة مصدر قوة اقتصادية للدولة، فالإتساع يعني، تنوعاً في المناخ، وتنوعاً في ملامح السطح، وتنوعاً في التربات الزراعية. ومحصلة هذا كله، تنوع في الإنتاج الزراعي، حيث تجد العديد من الغلات»^(٢).

والمملكة العربية السعودية وفر لها كبر المساحة العديد من الأقاليم الزراعية، مثل إقليم الأحساء، وفيه واحة الهفوف الكبرى، التي تنتج عدة أصناف من المنتجات الزراعية، وإقليم نجد، الذي يضم عدداً من الواحات الكبرى، الصالحة للزراعة، والحجاز الذي تنتشر فيه الواحات، والأودية التي تشكل مسایل المياه.

وتعني المساحة الكبيرة أيضاً «تنوعاً في التراكيب الجيولوجية، واحتواء تراكيب ترجع لعصور جيولوجية مختلفة، قديمها، ووسطها، وحديثها، يعني تنوع التراكيب، والعصور، وإمكانية وجود ثروات معدنية متنوعة، من فلزات، ولا فلزات، وموارد طاقة مختلفة من فحم، وبتروول، وغاز طبيعي، وقوى مائية»^(٣).

(١) حسين حمزة بندقجي، جغرافية المملكة العربية السعودية، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩.

(٢) محمد عبدالمجيد عامر، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٦٨.

وتحتوي أرض المملكة العربية السعودية بمساحتها الهائلة واحدة من أهم الثروات، وهي البترول، الذي يتركز في الاقليم الشرقي، والذي كان لاستغلاله أثراً قوياً، في قوة الدولة، وبنائها، وتبوءها مركزاً اقتصادياً مهماً، على الساحة الدولية، بالإضافة إلى البترول، هناك العديد من المعادن الاقتصادية المهمة، والتي تتوزع في أقاليم مختلفة على أرض المملكة، مثل الحديد، والذهب، والنحاس، والزنك. ومن المعادن اللافلزية الموجودة في السعودية، البارين، والفلوراين، والمنغنزايت، والملح، والكبريت، والزجاج، والكروم، وغيرها من المعادن.

الانعكاسات الأمنية :

وفرت مساحة المملكة العربية السعودية بعداً أمنياً مهماً لها، وذلك لأن سعة المساحة «تمثل عنصراً من عناصر (القوة للدولة) وهو ما يصطلح عليه الاستراتيجيون، وعلماء الجيوبولتيكس «الدفاع بالعمق»^(١). والعمق الجغرافي يمثل هذه الميزة للمملكة، بقدرتها على الدفاع، وتقبل الصدمة، أو العدوان الأول، مع القدرة على المقاومة، والتراجع، لإعداد النفس، واستمرار المواجهة من داخل أراضيها. هذا الوضع وفر أمناً استراتيجياً للمملكة، كان له انعكاساته الداخلية على نمو الدولة واستمرارية النظام السياسي، واستقراره.

وقد وفر شكل الدولة الذي يمكن القول إجمالاً أنه من الأشكال المندمجة، الخالية من التواءات الداخلة في مساحات دولة، أو دول أخرى، وكذلك الموقع المتوسط للعاصمة، بالنسبة للحدود الخارجية أعطى للمملكة ميزة على المستوى الأمني، بسهولة الدفاع عن الأطراف، الأمر الذي حقق، وحفظ للمملكة وحدتها السياسية والأمنية.

وأظهر امتزاج عنصري حجم الدولة، وتبلوره في شكل مندمج بعداً أمنياً تحظى به

(١) المصدر نفسه، ص ١٧١.

المملكة إذ قلل من وجود مطالبات بالانفصال، أو مطالبات من الدول المجاورة بأجزاء من أرض المملكة، لأن ذلك أحد دواعي تفتت الدولة، الذي بقيت المملكة في مأمن منه.

وبالنظر لمساحة المملكة مقارنة بعدد السكان، وظهور بعض الخلل في العنصر السكاني، فإن الدولة عبر خططها التنموية تحاول تلافي ذلك الخلل، إضافة إلى أن كبر المساحة يعد عنصرا مهما، لأي زيادات متوقعة مع تطور الدولة، وتقدمها، حيث لن تكون هناك مشكلة في احتواء السكان مستقبلاً.

الختامة

الجغرافيا السياسية كأحد العلوم الإنسانية، والمنصب اهتمامها على دراسة النشاط السياسي للإنسان (الدولة) إنطلاقاً من المعطيات الجغرافية المحيطة به، صورت الدولة الفكرة، والأسس التي يجب الإتيان بها لبلورة الفكرة عملياً على أرض الواقع، فحددت القيادة وإمامها بعناصر حشد القوة والمصلحة المشتركة طريقاً إلى قيام الدولة.

وفي النموذج السعودي التطبيقي وعبر العمل التاريخي الذي قام به الملك عبد العزيز باعثاً للدولة وبانياً لكيانها بعنصر القيادة المتمثل في شخصه والذي تبلور الى السلطة وممارستها، واعتراف الأطراف والقوى المحيطة بها، وسعيه منذ الخطوات الأولى لحشد القوى البشرية التي كونت ركن (الشعب) والذي أخذ في التنامي على امتداد المناطق التي وحدها القائد مكونة (الإقليم) أو الجزء من الأرض الذي تتم أركان الدولة وأعلن قيامها وتكاملها بتكامل معطيات النموذج (التجربة) وعناصره.

وعودة من الكل الى الجزء وبمزج العناصر المجردة، كما تقرها الجغرافيا السياسية، عوامل للضعف أو للقوة في بناء الدول مع العناصر التطبيقية متمثلة في تجربة الملك عبد العزيز في بناء الدولة خلصت الدراسة للنقاط التالية:

(١) تمتعت الشخصية القيادية للملك عبد العزيز بوعي (عملي) لأسس البناء القوي للدولة، تجلّى ذلك في الخطوات المتتابعة في عملية بناء الدولة والتي تزداد ثباتاً ورسوخاً بمرور الزمن وهي:

(أ) إن عمليات التوحيد جاءت طبيعية وحتمية، من حيث التدرج الزمني، والتوالي في المظاهر الجغرافية، من المناطق الأسهل فالأصعب فالأكثر صعوبة.
(ب) السعي المتدرج لحشد القوة (البشرية) بدأ بالمناطق ذات التجمعات

السكانية الأقل عداء واختلافاً مع أهدافه والمبادئ التي نادى بقيام الدولة على أساسها.

(ج) وفرت عمليات التوحيد الجوانب الأمنية، والاستراتيجية والعمق الجغرافي لمركز الانطلاقة.

(د) كانت كل مرحلة من مراحل التوحيد دعماً لاقتصاد الدولة، وزيادة لمصادر قوتها الاقتصادية والبشرية ونفوذها السياسي.

(هـ) اتصفت عملية التوحيد بأن كل منطقة كان يتم ضمها تأتي استجابة طبيعية وحتمية للجزء الذي يسبقها، ولبنية قوية وجاذبة للجزء الذي يليها، من الناحيتين الجغرافية والبشرية.

(و) خلت خطة سير الملك عبد العزيز في توحيد أجزاء دولته من العشوائية في ضم مناطق غير ذي حاجة أو فائدة ولا تشكل انتظاماً جغرافياً وطبيعياً، وانعكس هذا في عدم وجود تفتت في لحمية الدولة ونسيج بنائها.

وكمحصلة لهذا الوعي ومظاهره، برزت آثار إيجابية، على قوة الدولة؛ أبرزها شكل الدولة، وحجمها، فالتلاحم الطبيعي والمنطقي لعملية البناء (عمليات التوحيد) أفرز هذين العنصرين، وهما بدورهما عكسا آثاراً على استمرارية الدولة وقوتها في المجالات التالية:

(١) القوة الاقتصادية التي تنعم بها المملكة، نتيجة للمساحة المناسبة، والتي تحوي كماً وافراً من الموارد الاقتصادية.

(٢) الحالة الأمنية على المستوى الداخلي، والتي هي انعكاس للتلاحم العضوي لأجزاء الدولة المختلفة، بفعل الموقع، ومظاهره الطبيعية، وما يتوفر له من عمق دفاعي مناسب، مما انعكس على المستوى الاستراتيجي، والدفاعي للدولة.

(٣) الحالة الاجتماعية الناتجة عن العلاقة بين عنصري المساحة، والشكل بعوامل الاتصال والمواصلات، والتي ساهمت في عملية الانصهار. وعززت من لحمية

الدولة وتماسكها.

(٤) تكامل الشكل والحجم للدولة مع موقع العاصمة، الأمر الذي عزز الأداء المورفولوجي للدولة، ودعم قوة الدولة ووحدة أطرافها.

(٥) الاستقرار الذي يتمتع به النظام السياسي كانعكاس للمعطيات السابقة، إضافة إلى كونه أحد دعائم قوة الدولة، وتمثيلاً للمصلحة المشتركة، التي تتبلور في المعتقد الديني الذي تقوم على هداه الدولة.

قائمة المراجع

- ابو عيانة، فتحي محمد، دراسات في الجغرافيا السياسية، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٣ م.
- بندقجي، حسين حمزة. الدولة دراسة تحليلية في مبادئ الجغرافيا السياسية. جدة، ح.ح. بندقجي، ١٩٨١.
- بندقجي، حسين حمزة. جغرافية المملكة العربية السعودية. جدة، ح.ح. بندقجي، ١٩٨١.
- درويش، مديحة أحمد. تاريخ الدولة السعودية في الربع الأول من القرن العشرين، جدة، دار الشروق، ١٩٨٣.
- الحمد، تركي الحمد. دراسات ايدلوجية في الحالة العربية. بيروت، دار الطليعة، ١٩٩٢ م.
- المانع، محمد عبدالله. توحيد المملكة العربية السعودية. ١٩٨٢.
- متولي، محمد متولي، أبو العلا. محمد أبو العلا. الجغرافيا السياسية. القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٧ م.
- سعيد، أمين سعيد. تاريخ الدولة السعودية. ج ١.
- عامر، محمد عبد المجيد. دراسات في الجغرافيا السياسية والدولة، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية. د.ت.
- الرويثي، محمد أحمد. سكان المملكة العربية السعودية، الرياض، دار اللواء، ١٩٧٩ م.
- رياض، محمد رياض. الجغرافيا السياسية والجيويولتيكا، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٤ م.
- رفاعي، عبد العزيز رفاعي، يونس، سيد أحمد. بناء المملكة العربية السعودية، القاهرة، المكتبة العالمية، ١٩٧٨ م.